تمظهرات الغربة والحنين في قصيدة "الشيخ والفتاة" للشاعر"رشيد أيوب" قراءة تأويلية

الأستاذ: مُحَمَّد بوخطوط

جامعة مُحَمَّد الصديق بن يحيى – جيجل ـ الجزائر

ملخص:

إنّ من بين أهم الظواهر التي ميزت العالم العربي في العصر الحديث ظاهرة هجرة الأدباء العرب للعالم الغربي، حيث ولّدت هذه الهجرة من خلال إنتاجاتهم الأدبية ولاسيما الشعرية موضوعات كان لها الصدى الواسع في الوسط الأدبي تمثلت في مواضيع الغربة والحنين. وعلى هذا الأساس سنعالج في هذه الورقة البحثية مظاهر الغربة والحنين عند الشاعر "رشيد أيوب" باعتباره أحد شعراء المهجر؛ إذ شغلت هذه المواضيع مساحة كبيرة من إبداعاته الأدبية عموما والشعرية على وجه الخصوص، ومعلوم أنّ الشكوى من آلام الغربة ومشتقاتها وفي الحنين إلى الوطن وأهله يبلغ الشاعر المهجري الغاية التي لا مزيد بعدها لمستزيد. هذا وسنحاول استجلاء مواطن وملامح الغربة والحنين عند هذا الشاعر، وذلك من خلال قصيدته "الشيخ والفتاة" والتي بدورها قد نظمت في ذات السياق.

الكلمات المفتاحية: الغربة، الحنين، المهجر، الشعر والشاعر المهجريين، الأدب والأديب المهجريين.

مقدمة:

إنّ الحنين إلى الأهل والأحباب والأوطان على وجه التحديد غريزة في النفوس، سواء أكان عند الإنسان أم عند الحيوان، يتجلى ذلك في حنين الإبل إلى أوطانها والقطط إلى صغارها والطيور إلى أعشاشها، التي مهما أُخذت وأُبعدت عنها إلاّ أنّها تعود إلى أوكارها، قاطعة بذلك مئات الأميال بل الآلاف حتى تجد قرارة نفسها في وطنها، وإذا كان هذا هو حال الحيوان، فكيف لا يحن المرء إلى أهله وأرضه مهما عاش فيها من حرمان وبؤس وعان من الظلم والجوع والفاقة؟

والحنين إلى الأوطان والأحباب والأهل والتراب...ظاهرة إنسانية عامة في نفوس البشر، وإن كان حب الأوطان عند العرب أكثر وضوحا، لأن الشعر سجّل هذه الظاهرة منذ الجاهلية، وحتى العصر الحديث مع اختلاف يسير فيما بين البدوي والحضري، وللوطن في كل بيئة أثرا واضحا في سلوك الإنسان وتفكيره، ومظهره من حيث الملبس والمأكل والطباع والعادات والمثل العليا، ولكل شعب صفاته وعاداته ومُثُله. وإذا كان الحنين نتيجة، فإن الغربة لا محالة سببا لحدوثها وقيامها. **فما هو المقصود بالغربة والحنين، وما هي أنواعهما ومظاهرهما؟**

أولا: بسط مفاهيمي حول ظاهرتي الغربة والحنين:

1 ـ الغربة:

جاء في "لسان العرب" "لابن منظور": «الغُربة – الغُرْبُ: النزوح عن الوطن والاغتراب، ورجل غُرُبٌ بضم الغين والراء، وغريبٌ: بعيد عن وطنه، الجمع: غرباءٌ، ...، والغرباء: الأباعد.»[1] وعليه فإنّ الغربة في معناها اللغوي تدور حول المعاني التالية: البعد والفراق والغياب والنوى والبين. ولا تبتعد الغربة في معناها الاصطلاحي عن هذا المعنى؛ إذ تحمل الكلمة في ثناياها معنى البين والنوى والبعد والحزن والشؤم، وفي ذلك يتقاطع الاغتراب مع الغربة، هذه الأخيرة التي غالبا ما يكون الدافع إليها اضطراري فيه إجبار وإكراه، بحيث يكون المغترب في هذه الحالة مجبر لا مخير لجملة من الظروف والأسباب، في حين يكون الاغتراب طوعي يختاره الإنسان لأسباب قد تكون سياسية (قهر الاستعمار) أو اجتماعية (الفقر والفاقة) أو اقتصادية (الجوع والبحث عن الرزق)،...وهلمّ جرّا.

إن المغترب في بلاد الغربة يشتاق إلى الأهل والوطن ويأتي العيد وكل حبيب يضاحك حبيبه، أمّا هو فمن يضاحك في غربته؟! وفي عينه دموع الشوق والاغتراب، فقد كَبُر البعد وعزّ اللقاء، هذا وقد تجلّت وتجسّدت الغربة في جملة من الأبعاد والمظاهر ذكرها علماء النفس والاجتماع، فإذا لم يتمكّن الفرد من تحقيق ذاته وممارسة السيطرة على نفسه، وكان دائم الشعور بأنّ لا حول ولا قوّة له، لأنّه يرى الأشياء حوله تسيطر عليها ظروف خارجية أقوى منه، فإنّ هذا المظهر يسمّى **عجزا**[2]، ولا بدّ أن يجرّه ذلك إلى الشعور الدائم بأنّ لا قيمة له في هذا الوجود؛ إذ يرى أنّ هذا العالم يسير وفق منطق غير مفهوم ومبهم، فيحسّ بأنّ حياته تافهة لا معنى لها، وهذا ما يسمّى **بفقدان المعنى (اللامعنى)**[3]، ويرافق هذا الإحساس شعور الفرد بالوحدة والفراغ النفسي والافتقاد إلى الأمن والعلاقات الاجتماعية العميقة، والبعد عن الآخرين حتى وإن وُجد بينهم، ويصاحب العزلة الشعور بالرفض الاجتماعي والانعزال عن الأهداف الثقافية للمجتمع، والانفصال بين أهداف الفرد وبين قيم المجتمع ومعاييره فينشأ حينها **اغترابه عن مجتمعه وانعزاله عنه**[4]، وقد يبلغ المغترب مرحلة حادّة تجعله شديد الانفصال عن نفسه وعن كلّ ما يرغب في أن يكون عليه، حيث تسير حياته بلا هدف ويشعر بالاغتراب عندما لا يستطيع التحكم بأفعاله، ويكون سلبيا عندما يستسلم لأفعاله ونتائجها وهذا ما يسمونه **بالاغتراب عن الذات**[5]، كلّ هذه المظاهر وغيرها تدفع بالنفس إلى البحث عن سبيل آخر تحاول من خلاله فرض الذات والخروج من الانعزال، ولعلّ أكثر الوجهات التي استقطبت النفوس البشرية وخاصة فئة الشعراء: **الطبيعة**؛ إذ عدّت ملجأً آخر، كثيرا ما لاذ به الشعراء على مختلف نزعاتهم، إمّا هاربين من الحياة مع النّاس، وإما منطلقين من أفكارهم المادية أو الدينية التي تجعل الطبيعة وعناصرها ملكا للنّاس جميعا، وهكذا فإنّنا نجد الكثير من الشعراء المحدثين يتركون المدينة وما

فيها من كدّ وكيد وشقاء، ويهربون إلى الطبيعة لما فيها من سكينة وبساطة وحرية، حيث يجد الكثير من هؤلاء مصاحبة الكلاب والطيور وصخور الجبال، خير أنيس وعوض عن مصاحبة الذئاب الإنسانية.

وعالم الغاب من الطبيعة هو عالم الرابطة القلمية، يدعون إلى العيش فيه ويرون فيه العالم الذي يحقق الحياة الهنيئة، فالشاعر المهجري تحدّث عن الغابة، وعن اللّيل وفيهما يجد السكينة والهدوء والوقار، وكأنّ الطبيعة بعناصرها المختلفة حققت له رغبة وأقَرّت السكينة داخله، وهذا ما دفع الشاعر المهجري للهروب من ضجيج وجلبة المدينة والعمران واللجوء إلى هدوء الطبيعة، دون أن ننسى البحر الذي كان له الحظ الأوفر من كتابات المهجريين والذي هو أشبه بعالم واسع يسرح فيه الفكر ويتعمق التأمل، فيلجأ إليه الإنسان للترويح على نفسه ويشكو له حيرته وهمومه.

يقول "إيليا أبو ماضي" في قصيدة "الطبيعة"، وفيها يفرّ هاربا من زحمة المدينة وسكانها وصخبها إلى هدوء الطبيعة وسكينتها، فهي مقر الغنى والثراء والحبّ، يقول[6]:

روض إذا زرته كئيبا نفّس عن قلبك الكروبا

يعيد قلب الخلي مغرا وينسي العاشق الحبيبا

صحّ فلو جاءه عليل لم يأت من بعده طبيبا

2 ـ الحنين

جاء في"لسان العرب" "لابن منظور" أن الحنين هو: «الشوق وتوقان النفس، والمعنيان متقاربان، يقال: حنّ إليه يحنّ حنانا وحنينا فهو حانّ، (...) وحنّت الإبل: نزعت إلى أوطانها وأولادها، (...)، وتحنّنت الناقة على ولدها: تعطّفت (...)، والحنّان: الذي يحنّ إلى الشيء والحنّة بالكسر: رقة القلب (...) والعرب تقول: حنانك يا رب وحنانيك بمعنى واحد أي: رحمتك.»[7] نستنتج مما سبق ذكره إلى أن كلمة "حنين" في معناها اللغوي تحيل على المعاني التالية: الشوق، الرحمة، العطف ورقة القلب، وغيرها.

وإذا كانت الغربة تعني الشقاء والضياع والألم، فإن الحنين "nostalgie" بكل طاقاته يعني حياة السرور والبهجة والفرح، لأنّه يجسّد لحظة أمل يعيشها الشاعر أو الإنسان في ساعة من ليل أو نهار، وإذا كانت الغربة تعني البعد والنوى فإنّ الحنين يعني القرب والعودة، تفصل بينهما لحظة زمنية معينة يسبقها الشعور الطاغي بالحنين إلى الوطن[8]، وكما سبقت الإشارة فإن معنى الحنين هو الرحمة وهي مشتقة منها، قال المولى تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [سورة مريم الآية 13]، وهكذا يكون الحنين غريزة عميقة في نفوس البشر، وعاطفة سامية أودعها الله في الإنسان منذ الأزل، فأينما وجدت غريبا قابلك حنينه، «فمن علامة الرشد أن تكون النفس إلى مولدها مشتاقة، وإلى مسقط رأسها تواقة.»[9]

وهذه الغريزة ليست قصرا على الإنسان كما أسلفنا وإنّما تتعداه إلى الحيوان، فحنين الإبل مثلا هو نزوعها إلى أوطانها وأولادها، والكلاب كما هو معلوم أشد الحيوانات حنينا ووفاءً.

وقد تعددت أنواع الحنين وتنوعت لاسيما في العصر الحديث، فنجد الحنين إلى الوطن وهو أكثرهم شيوعا، بحيث كثر الشعراء الذين ينظمون قصائدهم في هذا الضرب؛ إذ أنّ حبّ الوطن يجري في النفس مجرى الدم في العروق، فقد هاجر هؤلاء العرب أوطانهم الأصلية إلى عالم آخر يفيض غنى وحرية، فكان الحنين إلى أوطانهم يزداد يوما بعد يوم، فيذكرون ماضيهم وأرض أجدادهم ويتلهّفون إلى رؤيتها، ويتغنون في أدبهم بمحاسنها، فكان هذا اللون من شعرهم أقواه وأجوده، كما نجد الحنين إلى المحبوبة أو الزوجة، وكذا الحنين إلى الأسرة من أمٍّ وأبٍ وأختٍ وأخٍ وأولادٍ وأحفادٍ، دون أن ننسى حنين الشعراء إلى مراحل طفولتهم وكذا شبابهم وماضيهم، ومن ألوان الحنين كذلك الذي كان له صدى كبير في أشعار هؤلاء المغتربين حنينهم إلى الطبيعة التي تركوها مجبرين مكرهين لا مخيرين، حيث كانوا يتذكرونها في ديار الغربة كلّما وقعت أبصارهم على منظر أو مشهد مماثل لطبيعتهم، فمن المعلوم أنّ الحنين إلى الوطن يستدعي بالضرورة الحنين إلى الطبيعة، فلم يكن حديث الطبيعة عند الشاعر المهجري سوى هروب نفسي من عالم المادة الغربي؛ عالم الآلة التي تسيطر على الفرد وتذيبه في المجموع، حيث الضجيج يُثقل على الآذان ويكاد يصمّها، وحيث الصراع بين قوى الخير وقوى الشر في النفوس، هذا المجموع المزدحم الخائف والضائع في زحمة العمل، وحيث الحياة لا تعرف الرحمة ولا تنظر إلى الضعيف وحيث شؤون الحياة تُثقل على الفرد، ولاسيما إذا كان هذا الفرد من الشرق لا يألف هذا النمط من الحياة والوجود، ولهذا فقد اشتاق الشاعر المهجري إلى الطبيعة، تلك التي تحقق له السكينة والوقار، فلمّا ملّت نفسه ضجيج المدينة والعمران في أرض المهجر تاقت إلى هدوء الطبيعة التي تخلو من الهموم والأحزان... يقول "جبران خليل جبران"[10]:

ليس في الغابات حزن لا، ولا فيها الهموم

فإذا هبّ نسيم لم تجئ معه السموم

ثانيا: لمحة موجزة عن حياة الشاعر"رشيد أيوب" وأهمّ آثاره:

"رشيد أيوب" شاعر لبناني مهجري عُرف "بالشاعر الدرويش" وأُطلق عليه لقب "الباكي الشاكي"، ولد في سنة 1871م وتلقى فيها دروسه الابتدائية، ثم هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد رحلة قام بها إلى باريس ومانشستر، وفي سنة 1905م انتقل إلى نيويورك واشترك مع زملائه في تأسيس الرابطة القلمية وفي تغذية بعض الصحف والمجلات بالمقالات النثرية والقصائد الشعرية، وتوفي سنة 1941م ودفنت معه أخلاقه الطيبة وخفة روحه ولطف فكاهته.[11]

"لرشيد أيوب" ثلاثة دواوين شعرية: "الأيوبيات" (1917م)، "أغاني الدرويش" (1928م) و"هي الدنيا" (1939م)، كان في ديوانه الأول شاعر الحريّة ينشدها لنفسه وخصوصا لوطنه الذي فتكت به ويلات الحرب العالمية الأولى، وقاس من استبداد الأتراك وظلمهم ما لم يقاسيه في يوم من أيام تاريخه الطويل، وكان ديوانه الثاني والثالث الذي لا يرى في المجتمع إلا بنفسه وشجونها و أشواقها، ولا بطلب من الدنيا أن تمنحه إلا خيمة التطور ليعيش فيها قانعا بفقره وعزلته، كان "رشيد أيوب" شديد التأني في نظم الشعر كثير الحرص على جمال الإيقاع وقد جاء شعره حافلا بالبساطة والطلاوة والرقة والموسيقى.[12] ومن الشعراء المهجريين الذين تركوا بصمتهم الشعرية في شاعرنا هذا هو "جبران خليل جبران"، وقبل أن يتأثّر بالحمى الجبرانية أفلت من قريحته الشعرية "الأيوبيات"، ولكن أعماله التالية أبرزت خصائصه الرومانسية بوضوح.[13]

وكما سبقت الإشارة فإن "رشيد أيوب" كان كثير الشكوى في شعره، فإن كان في شكواه مرارة الفشل ففيه كذلك حلاوة الأمل، وإن تكن في دمعته حرقة الأسى ففيها كذلك برودة التأسي، وهذا المعنى تصبح شكاة رشيد إدراكا لسرّ الحياة لا مناحة على الحياة.

وإن المتصفح لشعر "رشيد أيوب" يجد أن عصارة ما كتبه تتلخص في ثلاث كلمات **"حب وألم وخمر"**؛ فهو كثير التشبيب والشكوى والنواح، كثير الحنين إلى عهد الشباب والحب، كثير الألم والحيرة والانطواء، وقد كانت الخمرة ملاذه الوحيد للنسيان، حيث كان يلجأ إليها لنسيان واقعه والارتماء في أحضان الطفولة، كما كان كثير الأحلام فهي الوسيلة الوحيدة التي تعيده لشبابه الذاهب.

والصور الرومانسية حاضرة بكل قوّة في شعره؛ فصورة الليل والنجوم ستغرق العزلة والحيرة والضياع والهروب والمناجاة والاستذكار والحنين، والليل يجمع كل هذه الأمور في ذاته، وبين الشاعر والليل حبّ قوي يلحّ عليه سائلا أن لا ينجلي، لأن ظلامه رشد ونور والنجمة فيه راية الشعر، وهكذا فإنّ الوطن عنده يظلّ واحة يفرّ إليها من عالم مثقل بالهموم، وهذا العالم هو الذي يربطه بذكريات طفولته وأسرته التي أبعده عنها فراقه لوطنه، فهو حين يرى الثلج في ديار الغربة تتمثل طفولته في بيت أهله القابع على الجبل ترعاه أمّهُ في ليلة ثلجٍ. هذا وتندرج القصيدة الموسومة بـ"الشيخ والفتاة" والتي هي مدونة هذا البحث ضمن ديوانه الأوّل "الأيوبيات"؛ حيث كانت لملامح الغربة والحنين فيها حضورا مكثّفا، عكست الحالة النفسية التي كان عليها صاحبها أثناء نظمها.

ثالثا: تجلّيات وملامح الغربة والحنين في قصيدة "الشيخ والفتاة" لرشيد أيوب:

1 ـ نصّ القصيدة:[14]

نظرا لطول متن القصيدة ولضيق مساحة البحث، سنكتفي هاهنا بإيراد بعض المقاطع منها كما يلي:

لقد كان شيخ بالكرامة يذكر يدقّ على عود فيسبي ويسحر

وكان برغد العيش ينهى ويأمر فانحنى عليه الدهر والدهر يغدر
فحارب بالصّبر الجميل زمانه عسى إن هذا الصبر يصلح شانه
فلمّا ابتلى بالولد عضّ بنانه وفارقه صبر لديه وخانه
فخلّى عن الدنيا وملّ عبادها وتاه بأرض الله يطوي وهادها
فضاقت به الدنيا فذمّ ودادها ولمّا خلا بالنفس رام رشادها
فجاء إلى نهر ليجلس مرة وينفي هموما ضايقته وحسرة
يقول لنهر ماؤه يتجعّد سلام على نهر غليلي يبرد
رأى عادة حسناء حار بأمرا تلاعب أذيال النسيم بشعرها
فكفّ على خدّ وكفّ بصدرها وتنذب كالخنساء فرقة صخرها
دنا الشيخ منها وهو يرثي جمالها يخاطبها نصحا لينعم بالها
يسائلها لطفا لتشرح حالها لعلّ هموما يستطيع زوالها
علام علام ذا البكاء وذا الضنى بعيشك قولي هل تقطعت المنى
فقالت ودمع العين يجري بزفة أيا شيخ دعني الآن أقضي بحسرة
فمن حادث الأيام أني بسكرة لعلّي إذا ما مت أحظى بنظرة
فو الله قد خلّفت أهلي ومنزليأروم انفصال النفس منّي بمعزل
فواها حبيبي مات أمس وليس لي سوى حسرتي من بعده وتذللي
فلمّا دعاها للمنون المقدر رمت نفسها في النهر والشيخ ينظر
وآخرها ما قالت أموت وأعذر عسى الله يعفو عن فعالي ويغفر
هي النفس إن ملّت وزاد عناؤها وفاز على طيب الحياة شقاؤها
يقول على الدنيا السلام رجاؤها كذا نفس ذاك الشيخ عزّ عزاؤها
ويا مؤنسي بعد انفرادي وغربتي لقد كنت في الضراء فارج كربتي
جادت دموع الشيخ تهمي يسكبها وضاقت به الدنيا بواسع رحبها
فألقى بنفسٍ تبتغي عفو ربّها تهيم اشتياقا نحو مركز قطبها

هذا ويمكن إجمال ملامح الغربة والحنين عند الشاعر "رشيد أيوب" من خلال قصيدته "الشيخ والفتاة" في مجموعة من النقاط كما يلي:

• الإحساس بالغربة والقلق والسخط والحزن، أو ما يعرف بالعزلة الاجتماعية (الاغتراب عن المجتمع)، إذ أدّى بالشاعر المهجري في الكثير من الأحيان إلى البحث عن الموت كحلّ نهائي لتعاسته، وهذا ما يمكن ملامسته في نهاية القصيدة.

• الهروب من الواقع والانغلاق عن الذات: إنّ العزلة الاجتماعية تولّد في الفرد الشعور بالوحدة والفراغ النفسي والانفصال عن الآخرين، وهي مرحلة تأتي بعد فقدان الأمل في تحقيق ما يصبو إليه الفرد من أهداف حاول تحقيقها عبر الوسائل الاجتماعية الشرعية، إلاّ أنّه فشل في ذلك وهذا ما يجعله كثير الإحساس بالألم والحسرة أو التشاؤم واليأس فينطوي على ذاته.

• اللاّمعنى والشعور المستمّر بالعجز: يتجلّى هذا المظهر واضحا من خلال إجابة الفتاة الحسناء ردّا على سؤال الشيخ، والتي من خلالها يبرز الشعور بأنّه لا قيمة للحياة بعد فقدان الأقرباء، تماما مثلما حدث مع الفتاة بعد أن فرّقت المنيّة بينها وبين حبيبها.

• العاطفة الجياشة والصّدق في المشاعر والأحاسيس: يتجلّى ذلك واضحا من خلال محاولة الشيخ للتقرّب من الفتاة الحسناء، قصد التخفيف عنها والترويح عن نفسها، لعلّه ينسيها حزنها على فراق حبيبها.

• الهروب نحو الطبيعة والذوبان في عناصرها: لم يجد "رشيد أيوب" وأمثاله من شعراء المهجر إلاّ اللجوء إلى الطبيعة والانغماس فيها، لعلّها تنسيه همومه وتزيل غمومه، فقد كان يرى في الطبيعة العالم الذي يحقّق العيش الهنيء، ويضمن السكينة والهدوء والوقار في النفس.

• الحنين إلى الماضي (أيّام الطفولة أو مرحلة الشباب): لقد حنّ الكثير من الشعراء المهجريين ومنهم شاعرنا هذا إلى ذلك الماضي، الذي يرون فيه كلّ السعادة والحبّ، وكثيرا ما تذرف أعينهم حين تذكره، وخاصة إذا كان ماضيهم يملأه الفرح والبهجة، ولعلّ سرّ هذا الحنين هو طغيان طابع التشاؤم واليأس والحيرة والقلق على هذه الفئة من الشعراء، والخوف من المستقبل وما يخبؤه لهم من أسرار، وبالتالي يحنّون إلى ماضيهم السعيد لنسيان همومهم وأحزانهم.

هذا وسيتمّ التفصيل في هذه الملامح أكثر أثناء تحليل متن القصيدة، مع تذييل كل ملمح بما يناسبه من أبيات شعرية في قصيدة "الشيخ والفتاة".

2 ـ مقاربة تأويلية لنصّ القصيدة:

أ/ قراءة في العنوان:

للبنية الاستهلالية مكانتها في النّصّ فعلى عاتقها تقع مهمة إدخال القارئ في دائرة مجرى الحدث، وعليها أيضا تقع مهمة تسليح القارئ بأدوات وصور تسهّل عليه عملية الولوج إلى باطن النّصّ لكشف خباياه، فالعنوان ما

هو إلا تقليص لبنية النّصّ في دلالتها؛ نصّ مضغوط تضغط كلماته معاني النّصّ، فهو العتبة الأولى التي نقف عندها لاستجلاء غموضه، فكلّ كلمة في العنوان لها دلالة أحادية، وأخرى تركيبية تلعب اللغة في ذلك دورا أساسيا، وفي خطابنا الشعري هذا جاء العنوان مركبا؛ أي جملة اسمية، ابتدئ بالاسم (الشيخ) وهي كلمة جاءت معرفة، ثمّ حرف الواو وهو حرف عطف وربط وجمع يوحي بوجود علاقة بين كلمة (الشيخ) وكلمة (الفتاة)، هذه الأخيرة التي جاءت هي الأخرى معرفة، وكأنّ الشاعر من خلال هذا العنوان يريد أن يوصل إلينا مدى حزنه وحسرته بسبب هرمه وشيخوخته، ولعلّه ذكر اسم (الفتاة) تلذذا إلى مرحلة شبابه وفتوته، حينما كان شابا يافعا قويا له هيبته وشخصيته.

لقد جاءت هذه القصيدة تحت عنوان (الشيخ والفتاة)، فالشيخ هو إحالة إلى مرحلة التقدم في العمر (مرحلة الضعف والهرم والعجز)؛ فالشيخوخة عبارة عن خلل وتلف في عمليات النظام مع مرور الوقت والزمن، والفتاة إحالة إلى مرحلة التمتع بالحياة والشباب (مرحلة القوة والعطاء واللاّ عجز)؛ فالفتوة هو الشباب بين طوري المراهقة والرجولة، وهو النجدة أو نظام ينمّي خلق الشجاعة، والنجدة هي القوة التي يتحلى عادة بها الشباب في مثل تلك المرحلة العمرية.

وبالرغم من هذا فإن عنوان "الشيخ والفتاة" يبقى فيه نوعا من اللّبس والغموض فالشاعر هنا لا نعرف إن كان – من خلال استخدامه كلمة الفتاة – يحنّ إلى ماضيه حينما كان شابا، أم أن كلمة "الفتاة "تخبئ لنا دلالة أخرى يمكن تفسيرها بأن الشاعر مشتاق مثلا إلى محبوبته التي تركها في بلاده، وفَرَّقَتْهُ عنها غربته عن وطنه وابتعاده عنه، وقد يكون المعنى بعيد عن هذا أو ذاك.

ب/ تحليل القصيدة:

جاءت هذه القصيدة في قالب سردي قائم على السرد والوصف والحوار؛ حيث بدأت بوصف الحال الذي كان عليه الشاعر في أيام زمانه، إلى أن ابتلى بالشيخوخة، لتنتقل بعد ذلك كاميرا الراوي لتسليط الضوء على الفتاة الحسناء التي لا تزال في مقتبل عمرها، وبالرغم من ذلك فإنّها تعيش حالة من البؤس والشقاء والتعاسة، وهذا الانتقال المفاجئ من الضمير الغائب المفرد المذكر (هو) إلى الضمير الغائب المفرد المؤنث (هي) يحدث نقلة دلالية، وأحيانا صدمة شعرية لدى المتلقي.

ولو عدنا إلى الأبيات الأولى من هذه القصيدة لوجدنا فيها سيطرة واضحة للأفعال الدالة على زمن الماضي (كان، حارب، فارقه، خانه، ضاقت، خلا...)؛ ذلك الماضي الذي كان فيه (الشيخ الشاعر) هو الآمر النّاهي، لكنّ هذا الماضي ما لبث طويلا حتى زال؛ فالدهر لا مأمن له، فيوم يأتيك بمسرة ويوم يأتيك بمضرة، يوم لك ويوم عليك.

وهنا نجد الراوي في سرده للأحداث قد اعتمد على تقنية سردية عرفت منذ القديم في مجال علم السرد ألا وهي تقنية "الاسترجاع"، أو ما تسمى باللواحق وهي عبارة عن عملية سردية تتمثل في إيراد حدث سابق للحظة الزمنية التي بلغها السرد "Retrospection".

هذا ولم يجد الشاعر (وهو الراوي نفسه) إلا وسيلة واحدة ربما تكون المفتاح الذي ينسيه همومه، ألا وهو الصبر لعلّه يصلح شأنه وما حلّ به من نوائب، فحين لم يجد من الصبر مخرجا رأى أنّه من الضروري أن يسلك طريق "العزلة الاجتماعية"، ويتخذ من النّفس والذات خير أنيس؛ إنّها تشير إلى عدم قدرته على الانخراط في العلاقات الاجتماعية، وعلى مواصلة الانخراط فيها، وعلى تفوقه أو تمركزه حول ذاته، حيث تنفصل ذاته في هذه الحالة عن الذوات الآخرين، ممّا يدل على عدم كفاية جاذبية شبكة العلاقات الاجتماعية للفرد، من حيث عدم الارتباط بين أعضائها، والاغتراب فيما بينهم مع غياب العلاقات المتكاملة اجتماعيا فيتحرك بعيدا عن الآخرين:

فخلّى عن الدنيا وملّ عبادها وتاه بأرض يطوي وهادها

فضاقت به الدنيا فذمّ ودادها ولمّا خلا بالنفس رام رشادها

فقال لها يا نفس ويحك ذوبي

وقد أدّى به هذا الاهتمام بعالمه الداخلي، إلى أن يصنع لنفسه دنيا غير دنيا النّاس، وعالما يفيء إليه إن ألمّ به همّ، وما أكثر همومه وغمومه، وفي هذا العالم الخيالي يعطي لنفسه ولكبريائه ما افتقده في عالم النّاس، فالنّفس جوهر سامٍ عندما ينعتق من قيود الحياة الدنيا، يرجع إلى سابق نقائه وصفاته في عالم الكمال والجمال، فما شمس الحياة الدنيا وصبحها إلا خيال في خيال، أمّا في ذلك العالم فإنّ الصبح الحقيقي يتجلى للنّفس.

لكن ما نلبث حتى نجد الشاعر يندمج في الطبيعة، في جبالها ووديانها وأنهارها وحقولها، وهذا الهروب إلى الطبيعة ما هو إلا هروبا نفسيا يحقّق له الهدوء والسكينة؛ هروب من الضجيج الذي يثقل الآذان ويكاد يصمّها، هروب من رياء النّاس وخداعهم؛ إنّها الطبيعة التي تنسيه شيخوخته وعجزه، فالغاب بالنسبة له هو المرفأ الأمين لنفسه ينشد في رحابه الحياة الفطرية الوادعة، ولهذا نجده يتغنى بسعادته في الطبيعة التي تضمن له رزقه دون منّة أو إذلال، يفيض خيرها بلا مقابل، وما الطبيعة في حقيقة أمرها سوى مظاهر خارجية لأحلامنا الخفيّة:

فحينا ترى بين الجبال ظهوره وتسمع بالوديان طورا زفيره

فالطبيعة هو المكان المناسب الذي يفضفض فيه الشاعر ويخرج مكبوتاته، فيلجأ إليه للترويح عن نفسه ويشكوه بثّه وحيرته وهمومه، فهو مقرّ الغنى والثراء والحبّ «فالنفس في الطبيعة تعانق طيف السعادة وتتخفف من وطأة الهموم.»[15]

فالغاب حينما يلجأ إليه الشاعر فإنّه يستمتع فيه بسلام النّفس والبدن، فلا يخاف فيه من أنياب الوحوش فاتكة كما يخاف لسان الناطق المدني، والإنسان يلجأ إلى الطبيعة أيضا كلما «أحس أن رمال المادة أوشكت أن تبتلعه.»[16]

فجاء إلى نهر ليجلس مرّة وينفي هموما ضايقته وحسرة

يقول لنهر ماؤه يتجعّد سلام على نهر غليلي يبرد

إذا جئته أنهي عناء كروبي

وأينما ذكرت لفظة "النهر" فإنّها تدل على نموذج الحركة التي توحي بالحياة، فحركة النّهر هي حركة الحياة وكلّما كان النّهر تحقق الخصب وأصبح بإمكان الإنسان أن يحلم بالمستقبل، بالبقاء وبمجابهة كل الأخطار، فالنّهر إذن هو «رمز للانطلاق والتحرر، رمز للحركة والتغير والصيرورة الخالقة، حيث تتحول الأشياء ويتغير لونها لتنبض بالحياة والأمل.»[17]، وكأنّ "الشيخ الشاعر" بعودته إلى النهر يعود إلى ماضيه باعتبار النهر رمز للتغيير وتحوّل الأشياء، وهو حافز يبثّ في نفسه القوّة والعزيمة بالبقاء والاستمرارية، ومجابهة كل الأخطار التي تواجهه في حياته. وبالتالي تكون أحضان الطبيعة هي هيكل السعادة والحرية والروح، وكما سبقت الإشارة فإنّه وبمجرد لجوء الشاعر إلى الطبيعة فإنه بذلك يتذكر طبيعة وطنه ويحنّ إليها، وفي ذلك الحنين حنين إلى ماضيه وشبابه باعتباره بعيدا عن طبيعة وطنه:

وحنّ إلى الماضي حنين غريب.

ومازال تذكار الشباب يردّد ويذرف دمعا والحشا تتوقّد

فالحنين إلى الماضي قد أتعب وشل عقله التفكير فيه، فالماضي بالرغم من أنّه انتهى وعصفت بأيامه ولحظاته رياح الزمان، إلاّ أنّه ما زال صداه نغمة تسحر بموسيقاها آذانه، فما أجمل هذا الحنين، حنين إلى جمال الماضي وبراءته بكل ما يمثله له من ذكريات على الرغم من قسوتها أحيانا. بعد ذلك يلتفت الراوي إلى الطرف الآخر؛ إنّه الفتاة الحسناء الجميلة التي تندب حالها كما تندب الشاعرة المخضرمة "الخنساء" فراق أخيها صخر، فلما رأى "الشاعر الشيخ" هذا المشهد لم يستطع إلا أن يقترب منها ليستفسر منها سبب حزنها وتشاؤمها لعلّها تفضفض له ما يوجعها، متعجبا في سر كآبتها رغم حسنها وشبابها الغض:

دنا الشيخ منها وهو يرثي جمالها يخاطبها نصحا لينعم بالها

يسائلها لطفا لتشرح حالها لعلّ هموما يستطيع زوالها

هنا يقيم الراوي حوارا بين الشيخ والفتاة، يحاول من خلاله الشيخ أن يستفسر سر هذا البكاء والحزن في مرحلة خصبة – هي مرحلة الشباب الجميل– ولعلّ هذا التقرب من الفتاة بحجة الاستجواب قد ذكّر "الشاعر الشيخ" بمرحلة فتوته الزاهرة.

الدافع النفسي هو الذي حفّزه على معرفة ما حلّ بتلك الفتاة، مبينا أنّها لا تزال في مقتبل العمر والحياة أمامها طويلة، والصبر هو ديدنها الوحيد، ولكن في حقيقة الأمر أنّ مثل هذه النصيحة إنّما تنطبق على حاله كشيخ مسنّ فاقد لعزّه وشبابه، ولكن بالرغم من ذلك فإنّه لا يعترف بذلك صراحة:

لئن كان ذاك الخل مان بوعده فصبرا على حكم الزمان وكيده

فبالصبر تحلو حال كل لبيب

ويغتنم "الشاعر الشيخ" هنا فرصة تجربته الذاتية في الحياة الغدّارة، التي لا يُؤمّن لها حيث يلح عليها باغتنام كل فرصة سعيدة في حياتها وشبابها، لأنه سيأتي عليها يوم (وقت المشيب) يكثر فيه الحزن والتشاؤم، وفي هذه الحالة لا يكون إلا الموت فيها خير مخرج وأنسب خلاص؛ والذي يمثل نوعا من الشوق لكشف عالم الغيب، والإحساس بأنّ الموت هو السبيل إلى تحرير الفكر، ولن تستطيع النفس أن تدرك أي شيء على حقيقته إلا إذا قطعت كل وشيجة تربطها بالجسم، لأنه يعوقها على المعرفة الحقّة. اقترب الشاعر من الفتاة يبغي تفهّم أمرها، فقابلته بالصد أولا ومن الكبت واللاّ إفصاح إلى الإفصاح والبوح ثانيا:

ومدّ يديه للفتاة تأدّبا وقال بصوت المستجير تحبّبا

أجيبي ندائي يا ملاك أجيبي

فقالت ودمع العين يجري بزفرة أيا شيخ دعني الآن أقضي بحسرة

فمن حادث الأيام أنيّ بسكرة لعلّي إذا ما مت أحظى بنظرة

هنالك ممّن مات وهو نصيبي

وهنا يبدأ الانحراف نحو الطرف الثاني ليبدأ الراوي في قصة أخرى كانت بدايتها مأساوية، وختمت بمشهد تراجيدي دموي فيه حزن وأسى كبير تمثل في انتحار البطلة – الفتاة الحسناء – وكل ذلك بسبب الموت الذي فرّق بينها وبين حبيبها، حيث هاجرت أهلها ومنزلها، بل وانفصلت حتى عن نفسها وذلك ما جعلها تشعر بأشدّ أنواع الشقاء والتعاسة والذلّة، إلى درجة أن الموت بالنسبة إليها أصبحت له حلاوة ما بعدها حلاوة بعدما أخذت المنية حبيبها:

فو الله قد خلّفت أهلي ومنزلي أروم انفصال النفس منّي بمعزل

وتقوم هذه القصيدة على نظام الثنائيات، فلو تغلغلنا أكثر في ثناياها لوجدناها حافلة بثنائيات ضدية ولعلّ أهمها: ثنائية "الشيخوخة والفتوة"، فالأولى تحيل على معنى الضعف والوهن، والثانية تحيل على معنى القوة وصلابة الجسم والفكر، وتعدّ هذه الثنائية هي الأساس الذي انبنت عليه هذه القصيدة. وكذلك نجد ثنائية "الإخبار والاستخبار" يتجلى ذلك عند مواضع كثيرة في القصيدة، فأما الاستخبار فيتمثل في محاولات الشيخ التي أراد من خلالها أن يستفسر عن حال الفتاة الحسناء، ويكشف سر حزنها وكآبتها مثل قوله:

فقال لها هل أنت تائهة هنا وتبكين من فرط المشقة والعنا

علّام علاّم ذا البكاء وذا الضنى بعيشك قولي هل تقطّعت المنى

وأنت كغصن بالرياض رطيب

فإن كان لا، هل قد جفاك بصده حبيب تجنّى في هواه وودّه

وذلك في اعتقاده أن سبب حزنها هو أنّ حبيبها تركها وخالف وعده لها، أما الإخبار فتمثل في الإجابة عن السؤال في مثل قولها:

هنالك ممّن مات وهو نصيبي

فواها حبيبي مات أمس وليس لي سوى حسرتي من بعده وتذللي

إضافة إلى ثنائية: "الكتم والبوح"، فالكتم تمثّل في الإخفاء وغموض سبب وعلّة حزن وبكاء الفتاة بالنسبة للشيخ رغم صغرها وجمالها، أما البوح فيتجلى في الإفصاح عن سر الحزن والألم، حيث فتحت قلبها للشيخ وأخرجت مكبوتاتها إلى ساحة الشعور:

فواها حبيبي مات أمس وليس لي سوى حسرتي من بعده وتذللي

هناك ثنائية ضدية أخرى شغلت مساحة بارزة على مستوى النص، تمثلت في ثنائية "الخلود والموت" فالخلود يتعلق بالشيخ الذي رغم هرمه وكبره إلا أنه مازال متشبثا بخيوط الحياة والكينونة وحبّ البقاء، أما الموت فهو يتعلق بالفتاة التي فضّلت هذا الطريق بعد موت حبيبها رغم صغر سنها:

فحارب بالصّبر الجميل زمانه عسى إنّ هذا الصبر يصلح شانه

فلمّا دعاها للمنون المقدّر رمت نفسها في النّهر والشيخ ينظر

فواها حبيبي مات أمس وليس لي سوى حسرتي من بعده وتذللي

فياما أحيلى الموت بعد حبيبي

فموت حبيبها كوى قلبها فلم تستطع على ذلك صبرا، لذا لجأت إلى مهرب آخر لعلّه يكون خير حلّ للوصول بحبيبها، ففضلت الموت أمام الشيخ ويا له من مشهد زاد من حسرة الشيخ ويأسه في الحياة، فالنفس تسلك سبيل

الموت لتعثر على نوع آخر من المعرفة لم تلقه في الحياة «فاللحد مهد الحياة»[18]، فالحياة ليست إلى عدم مهما اعترضها الموت، فهي به تكمّل دورة من دورات المعرفة، تخرج منها إلى دورة أخرى، وهكذا تسلم الحياة إلى الموت ويسلم الموت إلى الحياة وقبل إقبالها على الانتحار والخلاص بالموت دعت الله تعالى بأن يصفح ويعفو عن خطاياها وأن يغفر لها ولكل من أذنب مثلها من النّاس:

فلمّا دعاها للمنون المقدّر رمت نفسها في النهر والشيخ ينظر

وآخر ما قالت أموت وأعذر عسى الله يعفو عن فعالي ويغفر

ويصفح عن مثلي ويمحو ذنوبي

إذن فكثرة عناء النّفس وتغلّب المشقة على طيب الحياة، يؤدّي إلى انهزام النفس والبحث عن الخلاص (المـوت). ونجد السارد قد سبق الأحداث قبل وقوعها، وهذا ما يعرف في علم السرديات بتقنية الاستباق أو الاستشراف أو ما يعرف باللواحق، وهي عبارة عن عملية سردية تتمثل في إيراد حدث آتٍ أو الإشارة إليه مسبقا (Anticipation) حيث أن السارد كان قد أجّل الحديث عن الحوار الذي دار بين الشيخ والفتاة، وذلك قبل إقبالها على الانتحار، وهذا الحديث تمثل في اعتراف الفتاة بفضل الشيخ عليها؛ الذي كان خير أنيس لها في وقت وحدتها، وفي أيام غربتها – الغربة النفسية، والاجتماعية وهي غربة مقصودة – والمفرج لكروبها وأحزانها في الوقت التي كانت تبحث عن طرف آخر تفرّغ له مكبوتاتها، وتصرّح بهمومها وغمومها:

فلولاك أمالي قديما تقطّعت فكم راحة لي فيك منك توسعت

وكم قلت للنفس الحزينة طيبي

ويا مؤنسي بعد انفرادي وغربتي لقد كنت في الضرّاء فارج كربتي

ولم تكن إلاّ فيك لا عنك رغبتي فأنت مقيم في حضوري وغيبتي

بصدر إلى يوم النشور رحيب

وها هي تنتهي قصة "الشيخ" كما انتهت قصة الفتاة، فرغم صغرها وجمالها فإنها لم تصبر واختارت لأن يكون عراكها في دوامة الحياة قصير، فما عسى إذن نقول عن شيخ هرم، عاش عزّ شبابه في رخاء ويسر ولا يزال متشبثا بدار الفناء بأسنانه وأظافره؟ إن المشهد الدرامي الذي انتهى بموت الحسناء ترك آثاره البالغة في نفسية الشيخ، وكم لشيخ كبير أن يصبر وأن يكبت في نفسه؟ لابد من يوم يُخرج فيه كل شيء مزعج مكنون في بوتقة اللاشعور، وعليه فلم يجد خلاصا إلا أن يسلك نفس الطريق التي سلكته الحسناء، إنّه ملّ دار الفناء وحنّ إلى دار البقاء، لربما سيجد فيها شبابه الضائع وعزّه المفقود الذي لم يجد طريقا للعودة إليهما:

وجادت دموع الشيخ تهمي يسكبها وضاقت به الدنيا بواسع رحبها

فألقى بنفس تبتغي عفو ربّها تهيم اشتياقا نحو مركز قطبها
وقلب إلى دار البقاء طروب

خاتمة:

نخلص في نهاية هذا المقال إلى رصد جملة من النتائج العامة والنتائج الخاصة، يمكن إبرازها في النقاط التالية:

° إنّ ظاهرة الغربة والحنين ظاهرة سجلت حضورا قويا في الأدب العربي، حيث صوّرت آلام وآمال هؤلاء الذين اضطرّوا إلى ترك أوطانهم وأهليهم، وتجرّعوا هموم الغربة ومحنة الشعور بالشوق والوحدة وعالم الصمت الحزين، فقد كان الشاعر والأديب حاضرين في هذه الغرة بجميع تناقضاتها، وحملت أعمال هؤلاء الأدباء صور المعاناة والأسى الذي تذوقوه جرّاء غربتهم، فعلى الرغم من أنّ العالم الغربي المادي بمغرياته كان يوحي بجو مثالي للعيش، لكنّ أدباء المهجر لم يكونوا لينغمسوا في هذا الجو، وينسلخوا عن جذورهم الشرقية العربية، لقد ظلّوا أوفياء ومتمسّكين بأصولهم العربية وذلك واضح من خلال حنينهم الدائم ومقاساتهم للغربة بصمت.

° إن توظيف "رشيد أيوب" للاغتراب والحنين هو تعبير عن التعاسة والفراغ الرهيب الذي تعاني منه ذاته، وهو نموذجا حقيقيا مثّل هذه القضية (الاغتراب)، حيث عبّرت صرخاته بمصداقية عن الضياع بحثا عن السكينة، وكما هو معلوم أنّ الأحزان عندما تسكن قلوب البعيدين عن أوطانهم، فإنّهم يخلقون لأنفسهم عالما يهربون إليه يبحثون فيه عن أنفسهم الضائعة في ركام من العبث المجنون، ولطالما كانت الطبيعة بتجلّياتها الجميلة النائمة في الوداعة، أكثر الأماكن استقطابا لهذه الفئة، و"رشيد أيوب" كان واحدا من هؤلاء الذين اتخذوا من الطبيعة دواءً لدائه، فقد كانت مستراحا لنفسه الشاردة، يطلق بين يديها شجوّه الدائم، فالليل حيث يهدأ الكون ولا تبقى غير النجوم، هو الملجأ الذي يجد فيه الشاعر المجال لإطلاق أغاريده واستعادة ماضيه بالوطن والحبيبة وأيام طفولته وشبابه.

° إن أجمل ما في "رشيد أيوب" هو أنّه أدرك حقيقة نفسه كدرويش هائم، حظّه من الحياة أن يغنّي لوطنه البعيد وأيامه الماضية وحبّه المنصرم وآماله الضائعة، ولأجل ذلك فقد كان له فضل كبير على الشعراء، للدعوة الشديدة على ضرورة الحرص على أن يكون الشعر متصلا بجوهر النفس الإنسانية، ومعبّرا عن تجارب الشاعر في صدق وبساطة وإخلاص.

الهوامش والإحالات:

1) ابن منظور، جمال الدّين أبو الفضل مُحَمَّد بن مكرم الإفريقي الأنصاري المصري: لسان العرب، ج11، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط4، 2005م، مادة "غَرَبَ".

2) يحي الجبوري: الحنين والغربة في الشعر العربي (الحنين إلى الأوطان)، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1428هـ/2008م، ص18.

3) مُحَمَّد مشعالة: الاغتراب عند الإمام علي من خلال نهج البلاغة، أطروحة دكتوراه العلوم في الأدب العربي القديم، إشراف: عبد القادر دامخي، جامعة الحاج لخضر، باتنة (الجزائر)، 2010/2009، ص 64.

4) يحي الجبوري: الحنين والغربة في الشعر العربي (الحنين إلى الأوطان)، مرجع سابق، ص 19.

5) المرجع نفسه، ص 20.

6) إيليا أبو ماضي: الأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة، بيروت، لبنان، دط، 2004م، ص 148.

7) ابن منظور: لسان العرب، ج4، مرجع سابق، مادة "حَنَنَ".

8) عمر بوقرورة: الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث (1945- 1962)، منشورات جامعة باتنة، الجزائر، دط، 1997م، ص 18.

9) الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر: الحنين إلى الأوطان، دار رائد العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1402هـ/1982م، ص 8.

10) جبران خليل جبران: المجموعة الكاملة، ج2، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1414هـ/1994م، ص 34.

11) حنّا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي الحديث، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1986م، ص619.

12) ينظر: شعبان عبد الحكيم مُحَمَّد: حركة الشعر العربي في المهجر ملامحها وأشهر الأعلام، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، دب، ط1، 2012م، ص ص95، 98.

13) نسيب نشّاوي: مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العرب المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1984م، ص 189.

14) ينظر: رشيد أيوب: الأيوبيات، مدرسة لسان العرب، دب، دط، 1916م، ص ص15، 19 (**مدونة البحث**).

15) إيليا الحاوي: الشعر العربي المعاصر، دراسة وتقييم (أبو القاسم الشابي: شاعر الحياة والموت)، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط4، 1984م، ص 40.

16) أحمد بسام ساعي: حركة الشعر العربي الحديث من خلال أعلامه في سورية، دار الفكر، دمشق، ط1، 1427هـ/2006م، ص 532.

17) مختار ملّاس: دلالة الأشياء في الشعر الحديث: عبد الله البردوني نموذجا، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، الجزائر، دط، 2002م، ص 35.

18) ميخائيل نعيمة: همس الجفون، مؤسسة نوفل للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط6، 2004م، ص 9.